

علماء المغرب الإسلامي ودورهم في بلاد السودان الغربي

(05 / 10 هـ / 11 - 16 م)

أ. سالمي زينب

ملخص:

لقد كانت للعلاقات التجارية بين بين بلاد المغرب الإسلامي وبلاد السودان الغربي دور كبير في توثيق الصلات الثقافية والعلمية وتجلى ذلك في الرحلات التي قام بها العديد من المغاربة الى هذه البلاد كتجار وعلماء وفقهاء لنشر الدين الاسلامي وفتح بلاد جديدة لتكون نصرا للمسلمين وبالفعل ازدهرت الحضارة العربية الاسلامية في بلاد السودان الغربي وأصبحت لها جامعات ومعاهد تضاهي المراكز العلمية في بلاد المغرب الاسلامي مثل فاس، تلمسان، الزيتونة.. وأهم مراكزها تمبكتو غاو ..

الكلمات المفتاحية: السودان الغربي، المغرب الإسلامي، الطرق الصوفية، الزوايا، الرحلة

العلمية..

ABSTRACT

Business relationship between Islamic Maghreb and Western Sudan had a big role in strengthening the cultural and scientific links. This was clear in several Maghrebins' trips to this country as tradesmen, scholars and religious men to spread Islam in a new land to be a victory for Muslims. As a matter of the fact, Arab-Islamic civilisation had been prospered in Western Sudan and there were universities and academies in Timbuktu, Gao, as big as the scientific centres in Islamic Maghreb in: Fez, Zaytuna, Telemcen...

Keywords: Western Sudan, Islamic Maghreb, Sufism, Zaouiyah, scientific journeys...

المقدمة:

يعتبر إقليم السودان الغربي من أهم المناطق التي تأثرت بحضارة وثقافة بلاد المغرب الإسلامي نظرا للقرب الجغرافي والرسالة التي حملها الإسلام وهي الفتح ونشر تعاليم هذه العقيدة السمحة.

علماء المغرب الإسلامي ودورهم في بلاد السودان الغربي

وتطلق كلمة السودان على المنطقة المحصورة بين المحيط الأطلسي غربا، والمحيط الهندي والبحر شرقا، والصحراء الكبرى شمالا، وعلى حدود خطي عرض 10° و 20° وخطي طول 8 غربا إلى 55° شرقا⁽¹⁾، ويعتبر العرب أول من أطلق اسم السودان على الأقوام التي تسكن جنوبي الصحراء الكبرى مستوحين لون البشرة وينقسم السودان إلى ثلاثة أقاليم:

1/ السودان الشرقي: ويشمل حوض النيل وروافده جنوب بلاد النوبة.

2/ السودان الأوسط: ويشمل المناطق المحيطة بحيرة تشاد.

3/ السودان الغربي⁽²⁾ يحد شمالا بالصحراء الكبرى وشرقا بحيرة تشاد وغربا وجنوبا بالمحيط الأطلسي.

وقد اعتبر السودان الغربي خلال الفترة الوسيطة أغنى بلاد إفريقيا لامتلاكه مواد نادرة كالعاج وريش النعام والتبر...، فشكل منطقة تجارية جد هامة جذبت إليها أنظار التجار في العالم خاصة التجار المغاربة الذين عملوا على نشر تعاليم الدين الإسلامي واللغة العربية وقد نجحوا في هذه المهمة بفضل جهود علماء وفقهاء ورجال الطرق الصوفية، فأصبحت بلاد السودان الغربي تحمل مظاهر الحضارة العربية الإسلامية، فالحياة الثقافية في غرب إفريقيا ذات طابع مغربي خالص، وذلك بسبب الاتصال الوثيق بين تمبوكتو وبين جامعات المغرب مثل فاس والقيروان، فالقلم العربي الذي استخدم في هذه البلاد هو القلم المغربي، والمذهب الغالب هو مذهب مالك الذي انتشر في المغرب والأندلس⁽³⁾، حتى أن شعوب هاته البلاد التي أسلمت لم تعرف عنف الصراعات المذهبية التي عرفتها الأندلس والمغرب، لأن المذهب المالكي كان منذ عهد المرابطين هو المعتمد⁽⁴⁾.

1- أعلام المغرب الإسلامي ودورهم في نشر الإسلام:

1-1- من المغرب الأدنى:

* الشيخ علي بن خلف:

يعتبر الشيخ علي بن خلف من كبار علماء الإباضية بالجنوب التونسي⁽⁵⁾، فصيح اللسان، ذكي

الجنان، كثير الإصابة والبيان ممن يقلد في فنون الآداب وعلوم الأديان.

في سنة خمس وسبعين وخمسمائة (575هـ)، سافر الشيخ إلى غانة، وانتهى إلى مدينة مالي، فأكرمه ملكها، وكان هذا الأخير مشركا، وكان قلما جلس مجلسا غلا وأجلس الشيخ "علي" وكان يتعجب من خلقه، وكثرة عبادته، ومحافظته على دينه، وذات مرة أصاب المدينة قحط شديد، فشكت الرعية ما أصابهم إلى ملكهم، فأمرهم بالاستسقاء، فجعلوا يستقون ويتقربون بقربانهم، فلم يسقوا، فقال الملك لـ"علي": ألا تدعو إلهك الذي تعبد أن سقينا؟"، فقال له: "لا يسعني ذلك، وأنتم تكفرون به وتعصونه، وتعبدون غيره، فإن أمتهم به وأطعتموه فعلت ذلك، ورجوت أن يسقيكم"، فقال له الملك: "علمني الإسلام وفرائضه حتى أتابعك عليه، وتستقي لنا"⁽⁶⁾، فعلمه كيف يقرأ بالشهادتين فعلمهما، ثم اصطحبه إلى نهر النيل، وعلمه كيف يتطهر، وعلمه الصلاة فصلى، ثم قال: "إن أنا صليت، فافعل ما تراني أفعل، وإذا دعوت فقل آمين"، فباتا ليلتهما في عبادتهما ولما كنا بعد صلاة الصبح، حتى الله عباده الغيث، ولما رأى الملك صنع الله تعالى دعا جميع أهل بيته إلى الإسلام، فأجابوا ثم دعا أهل المدينة، فقالوا نحن عبيدك" فأجابوا.... ثم حكم بأن المدينة إلا من أمن بالله ورسوله، ومتى روي فيها كافر، قتل، ..."⁽⁷⁾.

1-2-1 من المغرب الأوسط:

1-2-1-1 تلمسان:

محمد بن عبد الكريم المغيلي:

هو محمد بن عبد الكريم بن محمد بن المغيلي بن عمر بن مخلوف بن علي بن الحسن بن يحيى بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد القوي بن العباس بن عطية بن مناد بن السري بن قيس بن غالب بن أبي بكر بن عبد الله بن إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى السبط بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ينتسب إلى قبيلة مغيلة⁽⁸⁾ بأحواز تلمسان اختلف المؤرخون في تحديد سنة ولادته، فقليل أن ولادته كانت عام 842هـ/1438م، وقيل أنه ولد في سنة 790هـ/1388م⁽⁹⁾، وعموما فإن محمد بن عبد الكريم هو خاتمة المحققين الإمام العالم الفهامة القدوة الصالح السني، أحد الأذكياء ممن له بسطة في الفهم والتقدم⁽¹⁰⁾، بدأ دراسته الأولى بتلمسان ثم هاجر إلى مدن الأقطار الأخرى، وأخذ العلم، ومن أخذ عنهم:

علماء المغرب الإسلامي ودورهم في بلاد السودان الغربي

الإمام عبد الرحمن الثعالبي⁽¹¹⁾ (ت سنة 875هـ) بالجزائر، والشيخ يحيى بن يدير التديليسي⁽¹²⁾....، فتنوعت علومه من التفسير والتصوف والقراءات.

وعندما ما توسعت مداركه ومعارفه، تفرغ للتدريس، فتتلمذ عليه عدد لا بأس به من العلماء والشيوخ أمثال: الفقيه أيد أحمد، الشيخ العقاب الأنصمي....⁽¹³⁾.

وقد ارتحل المغيلي نحو الجنوب وبالضبط نحو توات، وخرج من تلمسان وهو ساخط على ساستها، وهذا ما يبدو من أشعاره فقد قال:

تلمسان أرض لا تليق بحالنا ولكن لطف الله نسأل في القضا

وكيف يحب المرء أرضا يسوسها يهود وفجار ومن ليس يرتضى

وقد كان الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي على علم وإطلاع بالتجارة الصحراوية، وما تدره من أرباح، لأن تلمسان في عهده كانت لها صلات تجارية هامة بواحات توات ومناطق السودان الغربي، وقد اثر عن السلطان أبي حمو موسى الثاني الزياني قوله: "لولا رغبتني في اتقاء ما يلحق بي من شناعة لما أنزلت ببلادي تاجرا من غير تجار الصحراء الذين يذهبون بخبيث السلع، ويأتون بالتبر الذي كل أمور الدنيا له تبع"⁽¹⁴⁾.

اتخذ المغيلي من تمطيط مركزا لنشاطه الفكري، ومنطلقا لنشر الإسلام، وتصحيح العقيدة الإسلامية في بلاد السودان، فقال "بابا حيدة" صاحب "القول البسيط في تمطيط": "وهو مشهورا بالعلوم الظاهرة، والولاية الباطنة، فهو أية الله في أرضه، وحجته في شريعته" وقد أسس زاويته القادرية بتمطيط فكان لها صدئ واسع عبر مناطق السودان الغربي⁽¹⁵⁾.

لقد وجد المغيلي في منطقة توات وضعاً دينياً واجتماعياً واقتصادياً سيئاً، لا يخدم مصالح السكان، وإنما يخدم فئة اليهود، الذين سيطروا على الطرق التجارية، ومن أغرب الأمور التي كشف المغيلي عنها هو وجود يهودي متنكر في زي إمام مسلم أمّ المسلمين طيلة أربعين عاماً، وعندما افتضح أمره بواسطة المغيلي حاول أن يفر فلاحقة وتولى قتله بنفسه⁽¹⁶⁾، وعندئذ قام على يهود توات وألزمهم الذل وقتلهم وهدم كنائسهم بعد التجائه إلى علماء⁽¹⁷⁾ فاس وتلمسان وتونس واستفتائهم، وحين

وصله جواب بعض الفقهاء قام بمحاربة اليهود وقد نازعه في ذلك الفقيه عبد الله بن أبي بكر العصفوني قاضي توات⁽¹⁸⁾.

غير أنه لم يفلح في استئصالهم فقد عادوا بمجرد انشغاله برحلاته نحو بلاد السودان الغربي أين كانت له طرائقه في نشر الإسلام وتصحيح العقيدة وفي فترة إقامته بلغه مقتل ولده وتوفي عبد الجبار على يد يهود توات فانزعج المغيلي وعاد إلى توات، وهناك أدركته منيته في سنة 909هـ/1505م.

- كان المغيلي ناثرًا كما كان فقيهاً مفسراً، وقد ترك تأليف كثيرة منها: "البدر المنير في علم التفسير"، "مصباح الأرواح في أصول الفلاح"، "تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين.." كما له عدة قصائد منها هذه الأبيات التي أنشدها متشوقاً إلى فاس حين ولي القضاء بمدينة أزموور:

يا فاس حي الله أرضك من ثرى وسقاك من صوب الغمام المسبل
يا جنة الدنيا التي أربت على عدن لمنظرها البهي الأجل

رحلته إلى السودان الغربي:

قد تكون الأسباب التي دفعت المغيلي إلى التوجه نحو بلاد السودان الغربي متعددة، كرهبته في نشر الإسلام ونشر دعوته الإصلاحية والتخفيف من الآثار السلبية التي لحقت بتوات من طرف اليهود، فاتجه إلى بلاد "أهير" شمال نيجيريا، ومن هناك أخذ طريقه إلى الهوسا، واستقر بمدينة "تيكدة" واشتغل بالتدريس في مساجدها، من تيكدة إلى كانو، أين اتصل بأميرها "أبي عبد الله محمد بن يعقوب"، وكتب له رسالة سماها "تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين" وهي عبارة عن جملة مختصرة فيما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام⁽¹⁹⁾ كما كتب المغيلي لسلطان كانو مجموعة أخرى في شؤون الإمارة وتنظيم الدولة وقد عنوانها بـ "ما يجب على الأمير من حسن النية للإمارة"⁽²⁰⁾.

وبعد إقامة طويلة في بلاد الهوسا، انتقل المغيلي إلى بلاد التكرور، والتحق بمدينة كاغو عاصمة مملكة سنغاي عام 1502 والتقى بأميرها الأسقيا محمد الكبير⁽²¹⁾ الذي حكم من 1493م إلى 1528م، فأكرمه هذا الأخير وكتب له سبعة أسئلة ترجاه الإجابة عليها، وفق الوجهة الشرعية،